اعظم المفكرين في التاريخ

المفاضلة بين نوابغ الامم سبيل وعر ، تزداد وعورتهُ اذا شئت المفاضلة بين قادة الفكر ، لان الفكر البشري قوة لا تحدُّ كثيرة النواحي متعددة الفروع ، ولكل من نواحيهِ وفروعهِ روعةٌ ومكانة في تاريخ العمران . فقصائد هوميروس ودانتي وشكسبير ، وصور رفائيل ودافنشي وهلبين ، وتماثيل ميكل انجلو ورودان ، ونواميس الجاذبية والاجسام الساقطة وقواعد التيار الكهربائي وغيرها من مبادئ العلوم الحديثة ، والمخترعات الميكانيكية على اختلافها — كلها من نتاج الفكر الانساني وكلها لازم لرقي العمران . وتاريخ ارتقاء العمران انما هو تاريخ ارتقاء الفكر البشري وتحرره واتساع مجال العمل امامهُ . فبالفكر تغلَّب الانسان على الوحوش الضارية التي كانت تنازعهُ البقاء ، وبالفكر حرَّر نفسهُ من قيود الاوهام والخرافات التي كانت تمنعهُ — ولا تزال تمنعهُ في كثير من الاماكن والقبائل — من النهوض والجري في مضمار الرقي . وبالفكر سيطر على عناصر الطبيعة وتحكم بقواها فطوَّق الارض بامواج الاثير ، وحلَّق في الجوّ بجناح وبغير جناح ، وجاب البحار على متن مدن طافية ، ووصل بين ضفاف الانهر بجسور هي في الحقيقة أشعار بليغة نوابها الخيال والذكاء والجمال والحديد . وعليهِ يجد الباحث صعوبة كبيرة في انتخاب عشرة من رجال الفكر بسمهم بسمة التفوق على جميع المفكرين بسواهم . ولكن حديث البحث عنهم حديث شائق لان الباحث والقارئ يسايران الخطوات التي خطاها البشر منذ فجر التاريخ الى الآن فينتقلان بفكرهما وشعورهما الى العصور الماضية التي كانت تتفتح رويداً رويداً عن ازهار الفكر التي اثمرت وانبعت ثمارها فيما نراهُ في عمراننا الحاضر من العجائب والغرائب

وقد طلبت المجلة الاميركية الى الدكتور دورانت احد كبار الكتاب الاميركيين ان يكتب لها مقالة يذكر فيها اعظم عشرة من رجال الفكر في التاريخ وما امتاز بهِ كلٌّ منهم . وقالت عنهُ انهُ بلغ من شغفهِ بالمباحث التي من هذا القبيل انهُ لكثرة قراءتهِ كتاب الفيلسوف سبنوزا « الاداب » يستطيع ان يعيد كتابتهُ عن ظهر قلبهِ وعلى هذا قس غيرهُ من الكتب العلمية والفلسفية التي كان لها شأن كبير في تقدم الانسان الفكري ولكنهُ مع ما لهُ من الشغف بسبنوزا لم يعدَّهُ بين الرجال العشرة الذين انتخبهم لانهُ آلى على نفسهِ ان يقدم على هذا البحث مجرداً عن الهوى . وقد اطلعنا على مقالتهِ فاقتطفنا منها ما يلي بتصرف قليل قال :

كيف نقيس عظمة الرجال الذين نفاضل بينهم لكي نختار أجلّهم شأنًا واعظمهم أثرًا؟ وبماذا نحكم على هذا الرجل بوجوب ادخاله في مجمع العشرة الذي نريد انشاءه ونحكم على ذاك باقصائه عنه؟ وماذا نريد حين نطلق لفظة «مفكر» على رجل من الرجال؟ انحسب يوريبدس ولقريطيوس ودانتي وليوناردو دافنشي وشكسبير وغوته من رجال الفكر؟ كلا. اننا نحني باحترام امام مآتيهم الفنية العظيمة ولكنهم كانوا رجال فن في المقام الاول وعليه فلا ننتخب منهم احدًا. او ندخل الانبياء ورجال الدين كبوذا والمسيح ومحمد واغسطينوس ولوثيروس في مجمعنا؟ كلا. انهم في دعواتهم الدينية المختلفة كان جلّ اعتمادهم على اثارة العواطف النبيلة الكامنة في صدور الناس لا على التأثير في عقولهم وأفكارهم. انضمّ في مجلسنا رجال العمل الذين نتغنى باسمائهم عصور التاريخ كيركليس والاسكندر ويوليوس قيصر وشارلمان وكرمول ونبوليون ولنكن؟ كلا لاننا اذا توسعنا في تعريف الفكر حتى يشمل ما قام به هؤلاء الرجال من الاعمال العظيمة فقد الفكر ما يمتاز به من الصفات. وعليه فلا نستطيع ان ندخل في مجمع العشرة الذي نريد انشاءه سوى الفلاسفة والعلماء. وحينئذٍ لا نقبل منهم الاّ من كان له اثر باقٍ في الناس. سننظر فيما استحدثوه من الافكار والآراء، وهل كانت مبتكرة اراؤهم أم منقولة عند غيرهم، وهل كانت شاملة ام منحصرة في فرع واحد من فروع العلم، وهل كانت عويصة تفذ بها صاحبها الى جوهر الاشياء ام رقراقة لم تمسّ الاّ عرضها. سننظر في كل ذلك ولكنّ المقام الاول سيكون لسعة هذه الافكار ولدوام أثرها. سنبحث عن اولئك الرجال الذين أثّروا في الناس بافكارهم لا باعمالهم وعواطفهم. نبحث عنهم في زوايا التاريخ المهملة أحيانًا بعيدًا عن الجماهير المهللة. فمن نبدأ؟

***

﴿ كنفوشيوس ﴾ أرى القارئ يهمّ بالاعتراض قائلاً — كيف نختار كنفوشيوس ونغفل المسيح او بوذا؟ ان السبب في ذلك ان كنفوشيوس كان فيلسوفًا اديبًا لا واعظًا يدعو الناس الى عقيدة دينية جديدة. وان دعوته الناس الى الاخذ باسباب الحياة النبيلة كان مبنيًا على براعث زمنية لا على اعتبارات فوق الطبيعة. انه اقرب من المسيح الى سقراط وفلسفته. ولد سنة ٥٥٢ قبل المسيح في عصر حلّت فيه الفوضى في الصين محلّ مجدها القديم فتمزقت تلك البلاد دويلات دويلات يسودها النزاع والحرب فاخذ على عاتقه ان يعيد اليها النظام والوئام. وهاك نقرة من كتاباته توضح لك اراءه قال

« ان الاقدمين الامجاد كانوا اذا ارادوا ان يوضحوا الفضائل السامية وينشروها في الناس ، ينظمون احوال ممالكهم . وقبل ان ينظموا احوال ممالكهم كانوا ينظمون احوال اسرهم . وقبل ان ينظموا احوال اسرهم كانوا يهذبون اخلاقهم وقبل ان يهذبوا اخلاقهم كانوا ينقوا نفوسهم وقبل ان ينقوا نفوسهم كانوا يحاولون ان يكونوا صادقين ومخلصين في افكارهم وقبلما كانوا يحاولون ان يكونوا صادقين ومخلصين في افكارهم كانوا يوسعون معارفهم . وتوسيع المعرفة كان يجيء عن طريق البحث والمشاهدة . شاهدوا الاشياء فاكتملت معارفهم وحين اكتملت معارفهم خلصت افكارهم وحين خلصت افكارهم تهذبت اخلاقهم وحين تهذبت اخلاقهم نقيت نفوسهم وانتظمت اسرهم . وحين انتظمت اسرهم انتظمت دولهم ، وحين انتظمت دولهم اصبحت الارض كلها تمرح في السعادة والوئام »

هذه فلسفة ادبية سياسية صحيحة في بضعة اسطر . نعم انها فلسفة محافظة ، تملي كثيراً من شأن العادات الاجتماعية وتستخف بالدمقراطية ولكنها رغماً عما فيها من اقوال شبيهة بمبادئ المسيحية ، تراها اقرب الى فلسفة الرواقيين منها الى المعتقدات المسيحية . ويقال ان تلميذاً وجه سؤالاً الى كنفوشيوس قال فيه « انجازي الشر بالخير » فقال « كيف تجازي اللطف اذاً ؟ جازِ الخير بالخير ، وجازِ الشر بالعدل » ولم يكن يعتقد ان الناس متساوون وان الذكاء هبة عامة لجميع الناس . بل كان يعتقد ان اكبر حظ يصيبُ شعب من الشعوب هو اقصاء الجهّال عن المناصب العامة واحلال الحكماء محلهم . فاختارتهُ مدينة كبيرة من مدن الصين تدعى شنغ تو حاكماً عليها . « فحدث اصلاح عجيب على اثر توليتهِ ، في عادات الشعب واخلاقهِ . فوضع حدّاً للجرائم ولم يجرؤ الخبث والخداع ان يرفعا رأسيهما واصبحت الامانة وحسن النية من مميزات الرجال ، واللطف من صفات النساء » . اني لا اكاد اصدق ما يقال انهُ حدث لبعد عن طبائع الناس والراجح انهُ لم يدم زمناً طويلاً . ولكن اتباع كنفوشيوس ادركوا عظمة معلمهم حتى في حياتهِ فدفنوهُ في احتفال مهيب وبنى جمهور كبير منهم اكواخاً قرب قبره واقاموا فيها يتوحون على فقدهِ ثلاث سنوات وبقي احدهم واسمهُ تسي كنغ بعد ذلك ثلاث سنوات اخرى

***

نجيل الطرف في الحضارات المتعددة التي نشأت ودالت بعد زمن كنفوشيوس فلا نجد في احداها رجلاً ينهض بفكرهِ فوق بقية الرجال كما ينهض الجبل فوق الاكام التي حولهُ ، اننا لا نجد رجلاً نسمع في صوتهِ صوت الشعب الذي ينتمي اليهِ ، ولا في تعليمهِ ما

اصلح عالم او احدث فيهم انقلاباً ما . ها نحن نطوي الهند والعراق والشام واسيا الصغرى ، فنقع فيها على بعض المشترعين الدينيين ، ولكننا لا نقع على عالم عالمي ولا على فيلسوف عالمي . ثم نستعرض الدول المصرية فينبؤنا التاريخ عن مئات من الفراعنة وآثار خالدة من الفن ، ولكننا لا نجد اسم رجل جمع في عقله حكمة الماضي وطبع شعبهُ بطابعهِ الفكري الخاص . فنصرف النظر عن كل هؤلاء الشعوب ونتجهُ الى بلاد اليونان في عصرها الذهبي — عصر بركليس

﴿ افلاطون ﴾ اتصوَّر القارئ يهمُّ بالاعتراض ثانية ولسان حالهِ يقول كيف نختار افلاطون ونصرف النظر عن معلمهِ سقراط اب الفلسفة واعظم شهدائها . عسى ان لا يضطرب القارئ اذا قلت لهُ انَّ نصف ما يذكر عن سقراط حديث خرافة . فقد اثبت المسيو دوبريل احد كتَّاب فرنسا في كتاب دعاهُ « الخرافة السقراطية » ان سقراط من طبقة اكليس وأديبوس وروموليس وغيرهم من الاشخاص الذين تحجب حقيقتهم الخرافات والاساطير . ولا ريب في ان جانباً كبيراً من شهرة سقراط عائد الى ذكاء تلميذهِ افلاطون والمعيتهِ . ولا نعلم ما في كتابات افلاطون من آراء سقراط حقيقة وما فيها مما ابتكرهُ افلاطون نفسهُ فليكن اسم افلاطون رمزاً لكليهما

من يداخلهُ اقل ريبة في اثر افلاطون . انظر الى الاكاديمية التي انشأها ، اول الجامعات في التاريخ واطولها عمراً . انظر الى الاهتمام العام والتجديد الذي تمَّ غير مرَّة في فلسفتهِ كما ظهر اولاً في اصحاب الفلسفة الافلاطونية الجديدة في الاسكندرية ثم في اتباع افلاطون بكمبردج . انظر الى المقام الذي احرزهُ افلاطون في حضارة القرون الوسطى وما لفكرهِ من الاثر في المباحث اللاهوتية الحديثة . واذكر ان مائة الف تلميذ او اكثر في كل انحاء العالم المتمدن مكبون اليوم على « جمهوريتهِ » « ومحاوراتهِ » يتلقون منها الحكمة . هذا هو خلود النفس يتلاشى امامهُ فناء الجسد . ان « محاوراتهِ » لمن اثمن الآثار التي يقتنيها البشر ففيها اتخذت الفلسفة اولاً شكلاً معيناً ولما افاض عليها افلاطون من عواطف شبابهِ الزاخرة المتنوعة وصل بها الى قمة عليا من كمال الابداع

اذا شئت ان تصغي الى حديث سامٍ عن الحب والصداقة والبحث عن الجمال فاقرأ ليسس وكارميدس وفيدرس . واذا شئت ان تعرف ما يناجي نفساً شريفة مما يتعلق بالحياة الاخرى فاقرأ « فيدو » ان صفحاتها الاخيرة لمن اعلى القمم التي بلغها النثر في كل عصور التاريخ . واذا كانت تلذ لك مشاكل العقل واسرار المعرفة فاقرأ بارمنيدس وثيتيتس . واذا كانت تلذ لك كل المباحث على اختلافها بوجه عام فاقرأ

« الجمهورية » ففيها تجد مباحث في ما وراء الطبيعة والآداب وفلسفة النفس واللاهوت والسياسة والفن . فيها تجد المبادئ التي تنشدها طالبات التحرر من النساء ، وفيها تجد القواعد التي يدعو اليها علماء الحياة اليوم لتحديد النسل . فيها نقع على مبادىء الاشتراكية واليوجنية والارستقراطية والدمقراطية والتحليل النفسي والمذهب القائل بان الحياة مظهر من مظاهر التفاعل الكيماوي . فلا عجب ان يقول امرسن في هذا الكتاب « احرقوا كل الكتب ففي هذا الكتاب غنى عنها »

﴿ارسطوطاليس﴾ لا شك في ان كل الباحثين يجمعون على اختيار ارسطوطاليس وضمه الى المجلس الذي نؤلفه من اعظم المفكرين . فابناء القرون الوسطى دعوه « بالفيلسوف » (ودعاه العرب بالمعلم الاول) يريدون بهذه التسمية انه جمع في شخصه وفكره اسمى ما بلغته الفلسفة من الغايات . على اننا لا نرى انفسنا مسوقين الى اختياره بدافع الاعجاب الذي يسوقنا الى اختيار افلاطون . لاننا حينما نقبل على كتب ارسطو طاليس نحس بجفاف لما فيها من حقائق مجردة يمليها عقل خاضع لقوانين البحث المنطقي . ولكن يجب ان لا نحكم عليه من مطالعة كتبه لانه قد ثبت ان معظمها كان خلاصات دونها هو او دونها تلاميذه لتذكر الخطب التي كان يلقيها عليهم ، وعليه فليس من الانصاف ان نقابل هذه الكتب بمحاورات افلاطون التي كانت ولا تزال اقوى ما يدفع الناس الى الاعجاب به اعجاباً يقرب من الحب

فاذا صرفنا النظر عما تقدم وجدنا ان عقل ارسطوطاليس كان من اعجب العقول في تاريخ الفكر بمضاء سواء نظرنا اليه من حيث سعة المباحث التي اشتغل بها او من حيث تعمقه في كل منها . انه يطوّق الكرة بفكره فيبحث في كل موضوع من موضوعات العلم والفلسفة فيزيده وضوحاً ويرتاي لكل مشكلة من مشاكلها حلاً وتعليلاً معقولاً فكأنه بث العيون والارصاد تجمع له كل الحقائق والمعارف ثم تناولها بعقله فوحد بينها . أنك تجد في كتبه التعاريف والالفاظ الفلسفية التي لا تزال تستعمل الى الآن . كذلك نقع فيها على حكمة تكاد تكون كاملة تشمل الحياة بأسرها . لقد كان ينشىء علوماً جديدة بسهولة تامة ففي مؤلفاته نقع على اول ذكر لعلم الحياة وعلم الاجنة والمنطق . لم يكن اول من فكر في هذه الموضوعات ولكنه كان اول من فكر فيها مقيداً تفكيره بالملاحظة والبحث والاستقراء والامتحان واستنتاج النتائج من مقدماتها . فاذا صرفنا النظر عن علم الهيئة وعلوم الطب فتاريخ العلم يبدأ من مباحث هذا الفيلسوف العظيم . ما من فيلسوف او عالم

آخر كان لهُ من الاثر البعيد كاثر ارسطوطاليس الأكنفوشيوس. فكل دارسي التاريخ يعرفون ان علماء مدرسة الاسكندرية والباحثين في رومية في عهد الامبراطورية اتخذوا مؤلفات ارسطوطاليس قاعدة لمباحثهم العلمية وان فلسفتهُ التي نقلها العرب الى اوربا اصبحت القاعدة التي بنيت عليها الفلسفة المدرسية في عصور النهضة وان دانتي وضعهُ في المقام الاول بين رجال المعرفة فدعاهُ « معلم العلمين » وان العلمين البزنطيين بعد ما افتتح الاتراك القسطنطينية عنوة هجروا شرق اوربا الى اواسطها وغربها فنقلوا معهم بزور فلسفتهِ فكانت من اكبر العوامل في النهضة الاوربية بعد القرون المظلمة . وبقي ارسطوطاليس مسيطراً على سير الفكر البشري نحو الف سنة لم تنقضِ الاَّ امام البحث العلمي الذي قال بهِ روجر باكون والفلسفة التي ابتكرها فرنسس باكون

***

تمرُّ بنا اليونان ونستقبل رومية فنسأل من هم اعظم المفكرين فيها. ان لقريطيوس اولم واعلاهم كعباً على ان فلسفتهُ لم تكن من ابتكاراتهِ ، بل استمدها بكل صراحة الى ابيقوروس، ولم يكن اثرهُ الاَّ أثراً متفرقاً . وعليهِ فلا نستطيع ان نختارهُ ليدخل معنا واما سنكا وابكتيتوس واوريليوس فلم يكونوا سوى اصداء تردد اقوال بعض فلاسفة اليونان كزينون وغيرهِ يطبقونها على احوال رومية المتضعضعة . لقد كانت الحضارة الرومانية في اواخر ايامها حين كتب هؤلاء الكتاب ، هانت بعد العزّ ، ودالت بعد القوة وحلّ الارقاء محل الاحرار وخضعت المدن العامرة القديمة لتراتش الجزية والطاعة . وانقسمت الطبقات السائدة طرائق طرائق ، واذا الحضارة القديمة قد دكت الى الحضيض وباتت الاطلال تبكي من بناها

ثم ما لبثت ان قامت الكنيسة المسيحية فوق الاطلال تجمع الاحزاب وتزيل الضغائن بفعل الكتب المقدسة . زال الامبراطور وبقي البابوات . ورجعت صفوف الجيوش من ساحات الحروب وانطلقت مكانها صفوف الرهبان ، جيوش المعتقد الجديد تنشئ نظاماً جديداً يستطيع الفكر أن يحيا فيهِ ويعيش . ما أطول ذلك العهد الذي أخذ العقل الاوربي فيهِ يتلمس طريقهُ الى النور

واتسعت المتاجر ، واصبحت القرى الصغيرة مدناً كبيرة ، والمدارس جامعات فتمكن بعض الافراد ان يتحرروا من مطالب الحياة الشديدة لينعموا في ظلال التفكير والدرس والبحث. فهزّ ابلار نصف قارة اوربا ببلاغتهِ وادمج يوانا فنتوري وانسلم خلاصة الافكار الشائعة في فلسفة

لاهوتية مجيدة ولما انقضى زمن الاستعداد أنجبت اوربا ارسطوطاليساً آخر في شخص ﴿ توما الاكويني ﴾ رجل كان يهتم بكل مظاهر الكون والحياة ووصل باسلاك دقيقة من الفكر بين ضفتي الهوة القائمة بين العلم والاعتقاد . جمع معارف عصره وفسرها ووحدها ثم صوّبها الى مسائل الحياة والموت. وعليه فيجب ان نختاره وان كان بعضنا لا يرتاح الى ذلك

ان قلبي لينفطر اذ أُجبر على اختيار توماس الاكويني ليشغل بين أعظم المفكرين محلاً كنت اودّ ان اشاهد فيه سبنوزا او ليوناردو دافنشي ، ولكن جريًا على الخطة التي رسمتها وهي التجرّد عن الهوى في اختيار من نختار ، يجب ان نخضع اهواءنا لعقولنا . أن تفوّق توما الاكويني في قرن حافل بالعظائم واثرهُ البعيد المدى في ملايين من الناس ، وآراءهُ التي لا تزال في عرف كثيرين أقوى دعامة من مبادئ العلوم الحديثة ، وفلسفتهُ التي لا تزال الركن الذي يقوم عليه أعظم مذهب مسيحي ، كل ذلك يحكم علينا باختياره

وفي القرن الخامس عشر ارتفع صوت من بولونيا يقول ان الارض وهي موطنُ قدمي الله في عرف الاقدمين ليست سوى سيّار صغير يدور حول شمس صغيرة . قول لا يثير فينا الآن دهشة ولا استغرابًا لاننا تعلمناهُ في مدارسنا ونقرأهُ في كل الكتب والصحف ، ولكنهُ كان كفراً والحاداً في عصر كانت فلسفة ابنائه تقوم على قرب الناس من السماء لانهُ جاء ضربة قوية حطمت السلّم الذي يصل بين البشر والملائكة

ان كتاب ﴿ كوبرنيكس ﴾ الذي عنوانهُ « دوران الاجرام السموية » أحدث ثورة فكرية بعيدة المدى . لما جلس يراقب الكواكب الثابتة الاخّاذة لم يكن يدور في خلده ما قد يكون لتوله من الاثر في المعتقدات ، لانهُ كان قد أخذ بالبحث عن الحقيقة والحقيقةُ في عرفه تحرر الناس ، فقلب بسحر معارفه الرياضية رأيهم في الكون فبعد ما كانوا يعتقدون ان الكون وما فيه يدور حول الارض والانسان صاروا يرون ان الكون نجوم وعوالم منتشرة في هذا الفضاء غير المحدود

لا نعلم مبلغ تقصي كوبرنيكس من العلوم الرياضية والفلكية على اننا نقيس مكانتهُ باثره الذي لا يقاس . فيه بدأ العقل يثور على الخرافات والاقوال التي تُقبل بالتسليم ومن ثمّ مضى في ثورته عصراً بعد عصر ، يكشف حقائق الطبيعة ويسيطر على عناصرها حتى بلغ ما بلغهُ الآن . فالثورة التي اثارها كوبرنيكس اثبتت ان الفكر البشري بلغ اشدهُ حينئذٍ ومنها سار في معارج النضوج والاكتمال

وفي الجزء التالي نستأنف الكلام على المفكرين الخمسة الباقين الذين ذكرهم الدكتور دورانت